عن حياة الإمام الشافعي

إعداد

محمود كمال خليفة

دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

رئيس مجلس الإدارة: محمود كمال خليفة

المدير العام: محمد حسن

الطبعة الأولى

الكتاب: في حياة الامام الشافعي

اعداد : محمود كمال خليفة

تصنيف الكتاب: سيرة ذاتية

المقاس١٤* ٢٠

الترقيم الالكتروني EBIN : 251-928-09-04

التليفون : ٠١٠٩٧٤٤٣٧٠٠ –٠١١١٢٣٥٧٤٧٣

Email:alkatebacademyforpublishing@gmail.com

موقعنا على فيس بوك: دار اكاديمية الكاتب للنشر الالكتروني

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الفصل الأول

أسطورتنا هو أول من دون علم الفقه، وكان ماهرًا بالحديث وإمام في علم التفسير وكان فصيحًا شاعرًا وذكيًا في القضاء وكان عارف بالطب والتشريح هو من قال عنه النبي صلي الله علية وسلم (عالم قريش يملأ الأرض علماً)

إنه الإمام الشافعي

هيا بنا في مقتطفات سريعة نتعرف على سيرة حياة الإمام الشافعي رحمة الله عليه

هو الإمام الشافعي هو أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي المطَّلِبي القرشي وهو ثالث الأئمة الأربعة عند أهل السنة والجماعة، وصاحب المذهب الشافعي في الفقه الإسلامي، ومؤسس علم أصول الفقه، وهو أيضاً إمام في علم التفسير وعلم الحديث، وقد عمل قاضياً فعُرف بالعدل والذكاء وإضافةً إلى العلوم الدينية، كان الشافعي فصيحاً شاعراً، ورامياً ماهراً، ورحّالاً مسافراً. أكثرَ العلماءُ من الثناء عليه، حتى قال فيه الإمام أحمد:

(كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس)

وقيل: إنه هو إمامُ قريش الذي في حديث منسوب للنبي محمد أنه قال: (عالم قريش يملأ الأرض علماً)

وُلد الشافعيُّ بغزة عام ١٥٠ هـ، وانتقلت به أمُّه إلى مكة وعمره سنتان، فحفظ القرآن الكريم وهو ابن سبع سنين، وحفظ الموطأ وهو ابن عشر سنين، ثم أخذ يطلب العلم في مكة حتى أُذن له بالفتيا وهو فتىً دون عشرين سنة.

هاجر الشافعي إلى المدينة المنورة طلباً للعلم عند الإمام مالك بن أنس، ثم ارتحل إلى اليمن وعمل فيها، ثم ارتحل إلى بغداد سنة ١٨٤ هـ، فطلب العلم فيها عند القاضي محمد بن الحسن الشيباني، وأخذ يدرس المذهب الحنفي، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز (المذهب المالكي) وفقه العراق (المذهب الحنفي).

عاد الشافعي إلى مكة وأقام فيها تسع سنوات تقريباً، وأخذ يُلقي دروسه في الحرم المكي، ثم سافر إلى بغداد للمرة الثانية، فقدِمها سنة ١٩٥ هـ، وقام بتأليف كتاب الرسالة الذي وضع به الأساسَ لعلم أصول الفقه، ثم سافر إلى مصر سنة ١٩٩ هـ. وفي مصر، أعاد الشافعي تصنيف كتاب الرسالة الذي كتبه للمرة الأولى في بغداد، كما أخذ ينشر مذهبه الجديد، ويجادل مخالفيه، ويعلِّم طلابَ العلم، حتى توفي في مصر سنة ٢٠٤ هـ.

حياته بالتفصيل

نسبه

هو أبو عبد الله (محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبد يزيد بن هاشم بن المطلب بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر وهو قريش بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان الشافعيّ المطَّلِبيّ القرشيّ).

يجتمع مع الرسولِ محمدٍ في عبد مناف بن قصي، وقيل: وهو ابن عم النبي محمد، وهو ممن تحرم عليه الصدقةُ من ذوي القربى الذين لهم سهم مفروض في الخُمس، وهم بنو هاشم وبنو المطلب.

أمّا نسبه من جهة أمه يقال أنها أزدية يمنية، واسمها فاطمة بنت عبد الله الأزدية، وهو القول الصحيح المشهور الذي انعقد عليه الإجماع، وكل الروايات التي رُويت عن الشافعي في نسبه تذكر على لسانه أن أمَّه من الأزد.

مولده ونشأته

ولد الشافعي بغزة في بلاد الشام سنة ١٥٠ هـ وعام ١٨٦٢ م، وعلى ذلك اتفق رأي الجمهور الكبار من مؤرخي الفقهاء وكاتبي طبقاتهم، ويقال هو العام الذي توفي فيه الإمام أبو حنيفة، وقيل: (ولد في اليوم الذي توفي فيه أبو حنيفة)، إلا أن ابن كثير قال: (ولا يكاد يصح هذا ويتعسر ثبوته جداً).

نشأ الشافعي في أسرة فقيرة كانت مقيمة بالأحياء اليمنية منها، وقد مات أبوه وهو صغير، فانتقلت أمُّه به إلى مكة خشية أن يضيع نسبه الشريف، وقد كان عمرُه سنتين عندما انتقلت به أمه إلى مكة، وذلك ليقيمَ بين ذويه، ويتثقفَ بثقافتهم، ويعيشَ بينهم، ويكونَ منهم وعاش الشافعي في مكة عيشة اليتامى الفقراء، مع أن نسبه كان رفيعاً شريفاً، بل هو أشرف الأنساب عند المسلمين، ولكنه عاش عيشة الفقراء إلى أن استقام عودُه وقد كان لذلك أثرٌ عظيمٌ في حياته وأخلاقه.

وانتقلت به أمه إلى اليمن، فلما ترعرع وقرأ القرآن بعثت به إلى بلد قبيلته مكة

ويقول الشافعي بنفسه: ثم انتقلت بعد ذلك من مكة إلى قبيلة هذيل لأتعلم منها اللغة العربية، فلقد كانت قبيلة هذيل أفصح العرب بياناً ولغة وكلاماً، ثم أردف قائلًا:

فرجعت بعد ذلك إلى مكة لأردد الأشعار وأذكر الآداب والأخبار وأيام العرب، فلقيني رجل من الزبيريين من بني عمي فقال لي: يا أبا عبد الله! والله إنه ليعز عليَّ ألا يكون مع هذه البلاغة والفصاحة والذكاء فقه.

فقلت له: فمن من العلماء نقصده لطلب الفقه؟

فقال لي هذا الرجل: تقصد سيد المسلمين مالك بن أنس في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وعبر قائلا: فوقعت هذه القولة في قلبي.

يقول الشافعي: فذهبت إلى رجل من أهل مكة علمت أنه يحوي عنده موطأ الإمام مالك، فذهبت إليه واستعرت منه الموطأ وعكفت عليه، فحفظت الموطأ عن ظهر قلب في تسع ليالٍ، (حفظ القرآن وعمره سبع سنين، وحفظ موطأ الإمام مالك في تسع ليالٍ لا في تسع سنين) فلما انتهيت من حفظ الموطأ أخذت رسالة من والي مكة ومن شيخي وذهبت إلى الإمام مالك

وقال الحافظ ابن حجر في الجمع بين الروايات السابقة: (والذي يجمع بين الأقوال: أنه ولد بغزة عسقلان، لأن عسقلان هي الأصل في قديم الزمان، وهي وغزة متقاربتان، وعسقلان هي المدينة، ولما بلغ سنتين حوَّلته أمُّه إلى الحجاز ودخلت به إلى قومها، وهم من أهل اليمن لأنها كانت أزدية، فنزلت عندهم، فلما بلغ عشراً خافت على نسبه الشريف أن يُنسى ويضيعَ فحوَّلته إلى مكة).

لقد حفظ الشافعي القرآن الكريم وهو في السابعة من عمره، مما يدل على ذكائه وقوة حفظه، ثم اتجه إلى حفظ الحديث النبوي، فحفظ موطأ الإمام مالك، قال الشافعي: حفظت القرآن وأنا ابن سبع سنين، وحفظت الموطأ وأنا ابن عشر سنين.

وكان الشافعي يستمع إلى المحدِّثين، فيحفظ الحديث بالسمع، ثم يكتبه على الخزف أو الجلود، وكان يذهب إلى الديوان يستوعب الظهور ليكتب عليها، والظهور هي الأوراق التي كُتب في باطنها وتُرك ظهرها أبيض، وذلك يدل على أنه أحب العلم منذ نعومة أظفاره.

قال الشافعي: لم يكن لي مال، فكنت أطلب العلم في الحداثة، أذهب إلى الديوان أستوهب منهم الظهور وأكتب فيها.

وقال: طلبت هذا الأمر عن خفة ذات اليد، كنت أجالس الناس وأتحفظ، ثم اشتهيت أن أدون، وكان منزلنا بمكة بقرب شِعب الخَيْف، فكنت آخذ العظام والأكتاف فأكتب فيها، حتى امتلأ في دارنا من ذلك حبان.

وقال: كنت يتيمًا في حجر أمي، ولم يكن معها ما تعطي المعلم، وكان المعلم قد رضي من أمي أن أخلفه إذا قام، فلما ختمت القرآن دخلت المسجد، وكنت أجالس العلماء، فأحفظ الحديث أو المسألة، وكان منزلنا بمكة في شِعب الخَيْف، فكنت أنظر إلى العظم فأكتب فيه الحديث أو المسألة، وكانت لنا جرة عظيمة، إذا امتلأ العظم طرحته في الجرة.

ويقول الشافعي بعد أن أوصاني الرجل بالفقه وأن أذهب للإمام مالك، توسطت إلى ذلك بوالي مكة، فأرسلني برسالة إلى والي المدينة.

لما وصلت الرسالة والي المدينة فقرأها قال:

ـ والله إنَّ مشيي من جوف مكة إلى جوف المدينة حافياً راحلاً، لأهوَنُ عليّ من المشي إلى باب مالك، فلستُ أرى الذُّلَّ حتى أقف على بابه.

قال الشافعي رضي الله عنه:

ـ فقرعنا الباب، فخرجت إلينا جارية سوداء، فقال لها الأمير:

ـ قولي لمولاكِ أني بالباب.

فدخلت ثم خرجت فقالت:

ـ إنَّ مولاي يُقرئكَ السلام، ويقول: إن كان لديك مسألة فارفقها في رقعة، يخرج إليك الجواب، وإن كان للحديث، فقد عرفت موعد الدرس.

قال الأمير:

ـ قولي له إنَّ معي كتاب والي مكة إليه في حاجة.

وعند هذا الحد نكون وصلنا إلى نهاية الفصل الاول يا ترى ماذا سيحدث عندما يقابل الإمام مالك هذا ما سنعرفه الفصل القادم

الفصل الثاني

وقف الشافعي والأمير على باب الإمام مالك ثم قال الأمير للجارية:

- قولي له إنَّ معي كتاب والي مكة إليه في حاجة.

فخرج الإمام مالك، فأعطاه الوالي الكتاب، فقرأه فألقاه غضبًا وقال:

- سبحان الله! فمنذ متى صار حديثُ رسول الله يُطلَبُ بالشفاعات؟

ثم التفت إلى الفتى (الشافعي) فقال:

- ما تريد يا فتى؟

- أن أتعلم منك يا مولاي، فأكون خادمك.

- فما تحفظ من كتب الله؟

- كله يا سيدي.

- لا شيء، فصبيان المدينة يحفظون كتاب الله، فما تحفظ من حديث رسول الله؟

- الموطأ وغيره الآلاف يا سيدي.

- لا شيء فصبيان المدينة يحفظون الموطأ وآلافاً من حديث رسول الله. فما اسمك يا فتى؟

- محمد بن إدريس، بن العباس، بن عثمان، بن شافع، بن السائب، بن عبيد، بن عبد يزيد، بن هاشم، بن المطلب بن عبد مناف.

تبسم الإمام مالك لأول مرة وهو يحدق في الفتى (الشافعي) وقال:

- بخٍ بخٍ، فهلّا قلتَ إنك من الدوحة المباركة، ادخل يا فتى.

وبعد أن دخلوا قال الإمام مالك وهو ينظر للشافعي قائلا:

- يا محمد! إني أرى الله قد ألقى على قلبك نورًا فلا تطفئه بظلمة المعصية، فإني أرى أنه سيكون لك شأن كبير إن شاء الله عز وجل.

ثم أردف الإمام مالك قائلًا: يا فتى إذا كان الغد تجيء ويجيء من يقرأ لك الموطأ.

فقال الشافعي: أنا قارئ، أنا أقرأ إن شاء الله تعالى.

يقول: فلما كان الغد أخذت الموطأ في يدي وجلست بين يدي شيخي مالك، وأخذت أقرأ عليه الموطأ من حفظي، وكلما نظرت إلى مالك وتهيبت مالكاً -وكان مالك قد أعجب ببلاغتي وقراءتي وحسن إعرابي- فكلما أردت أن أنهي القراءة في الموطأ نظر إليَّ مالك وقال: زد يا فتى زد يا فتى زد يا فتى، حتى أنهيت الموطأ كله في أيامٍ يسيرة.

ثم بعد ذلك، أخذ الشافعي الحديث عن الإمام مالك، وأخذ عنه الفقه وفتاوى الصحابة وعمل أهل المدينة رضوان الله عليهم جميعاً.

ولبث الإمام الشافعي في المدينة المنورة ملازمًا لشيخه ملازمة الظل لصاحبه حتى توفى الله مالكًا رضي الله عنه، ولم يكتفِ الشافعي بعلم مالك، وإنما رحل إلى شيوخ المدينة -وكانت المدينة حينئذٍ تزخر بالأئمة الأعلام والشيوخ الكبار وأخذ العلم عنهم جميعًا.

ولمّا توفي الإمام مالك رحل الشافعي مرة أخرى إلى بلد الله الحرام إلى مكة المكرمة، وما لبث الشافعي في مكة إلا قليلاً، ثم رحل الشافعي مرة أخرى إلى بلاد اليمن لطلب العلم، رحل الشافعي إلى اليمن، وما لبث الشافعي إلا قليلاً حتى انتشر ذكره، وعلا قدره، وظهر فضله على جميع الشيوخ والعلماء وهو الذي ذهب طالبًا للعلم حتى قال له شيخه مسلم بن خالد الزنجي حينما عاد من المدينة إلى مكة، قال له: افتِ يا أبا عبد الله، فإنك الآن أهل للفتيا، وهو غلام حدث صغير.

ولقد شغل الشافعيُّ الناسَ بعلمه وعقله، شغلهم في بغداد وقد نازل أهل الرأي، وشغلهم في مكة وقد ابتدأ يَخرج عليهم بفقه جديد يتجه إلى الكليات بدل الجزئيات، والأصول بدل الفروع، وشغلهم في بغداد وقد أخذ يدرس خلافات الفقهاء وخلافات بعض الصحابة على أصوله التي اهتدى إليها.

رزق الله الشافعي علم اللغة العربية، وعلم الكتاب، ففَقِهَ معانيه، وحوى أسراره ومراميه، وقد ألقى شيئًا من ذلك في دروسه، قال بعض تلاميذه: كان الشافعي إذا أخذ في التفسير كأنه شاهد التنزيل، وأوتي علم الحديث، فحفظ موطأ مالك، وضبط قواعد السُّنَّة، وفهم مقاصدها والاستشهاد بها، ومعرفة الناسخ والمنسوخ منها، وأوتي فقه الرأي والقياس، ووضع ضوابط القياس والموازين، لمعرفة صحيحه وسقيمه، وكان يدعو إلى طلب العلوم، فقد كان يقول: من تعلم القرآن

عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في الفقه نبل قدره، ومن نظر في اللغة رق طبعه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وكان مجلسه للعلم جامعًا للنظر في عدد من العلوم، قال الربيع بن سليمان:

كان الشافعي رحمَه الله يجلس في حلقته إذا صلى الصبح، فيجيئه أهل القرآن، فإذا طلعت الشمس قاموا وجاء أهل الحديث، فيسألونه تفسيره ومعانيه، فإذا ارتفعت الشمس قاموا فاستوت الحلقة للمذاكرة والنظر، فإذا ارتفع الضحى تفرقوا وجاء أهل العربية والعروض والنحو والشعر، فلا يزالون إلى قرب انتصاف النهار.

ومما روي عن ذكائه أنه كان ذاتَ مرةٍ جالسًا مع الحميدي ومحمد بن حسن يتفرسون الناس، فمر رجل فقال محمد بن الحسن: يا أبا عبد الله انظر في هذا، فنظر إليه وأطال، فقال ابن الحسن: أعياك أمره؟

قال: أعياني أمره، لا أدري خياط أو نجار.

قال الحميدي: فقمت إليه فقلت له: ما صناعة الرجل؟

قال: كنت نجارًا وأنا اليوم خياط.

وقد وصف أبو زكريا السلماسي علمه فقال:

الشافعي جمع أشتات الفضائل، ونظم أفراد المناقب، وبلغ في الدين والعلم أعلى المراتب، إن ذُكر التفسيرُ فهو إمامه، أو الفقهُ ففي يديه زمامه، أو الحديثُ فله نقضه وإبرامه، أو الأصولُ فله فيها الفصوص والفصول، أو الأدبُ وما يتعاطاه من العربية العرب فهو مبديه ومعيده، ومعطيه ومفيده، وجهه للصباحة، ويده للسماحة، ورأيه للرجاحة، ولسانه للفصاحة، إمام الأئمة، ومفتي الأمة، والمصباح الزاهر في الظلمة، في التفسير ابن عباس، وفي الحديث ابن عمر، وفي الفقه معاذ، وفي القضاء علي، وفي الفرائض زيد، وفي القراءات أُبَيّ، وفي الشعر حسان، وفي كلامه بين الحق والباطل فرقان.

وكان الشافعي متواضعًا مع كثرة علمه وتنوعه، ومما يدل على ذلك قوله: ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ، وما في قلبي من علم إلا وددت أنه عند كل أحد ولا ينسب إلي.

وعن الربيع بن سليمان أنه قال: سمعت الشافعي، ودخلت عليه وهو مريض، فذكر ما وضع من كتبه.

فقال: لوددت أن الخلق تعلمه، ولم ينسب إلي منه شيء أبداً.

وعن حرملة بن يحيى أنه قال: سمعت الشافعي يقول: وددت أن كل علم أعلَمه تعلَمه الناس، أوجر عليه ولا يحمدوني. وقال أحمد بن حنبل: قال لنا الشافعي: أنتم أعلم بالحديث والرجال مني، فإذا كان الحديث صحيحًا فأعلموني، كوفيًا كان أو بصريًا أو شاميًا، حتى أذهب إليه إذا كان صحيحًا.

كما كان الشافعي معروفًا بالكرم والسخاء، ومن ذلك ما قاله الربيع بن سليمان: تزوجت، فسألني الشافعي:

- كم أصدقتها؟

- ثلاثين دينارًا

- كم أعطيتها؟

- ستة دنانير

فصعد داره، وأرسل إلي بصرَّة فيها أربعة وعشرون ديناراً. وقال عمرو بن سواد السرحي: كان الشافعي أسخى الناس على الدينار والدرهم والطعام، فقال لي الشافعي: أفلستُ في عمري ثلاث إفلاسات، فكنت أبيع قليلي وكثيري، حتى حليّ ابنتي وزوجتي، ولم أرهن قط.

وكان الشافعي ورعًا كثير العبادة، فقد كان يختم القرآن في كل ليلة ختمة، فإذا كان شهر رمضان ختم في كل ليلة منها ختمة، وفي كل يوم ختمة، وكان يختم في شهر رمضان ستين ختمة. وعن الربيع بن سليمان المرادي المصري

أنه قال: كان الشافعي يختم القرآن في شهر رمضان ستين مرة، كل ذلك في صلاة.

وقال الحسين بن علي الكرابيسي: بتُّ مع الشافعي ثمانين ليلة، كان يصلي نحو ثلث الليل، لا يمر بآية رحمة إلا سأل الله لنفسه وللمؤمنين أجمعين، ولا يمر بآية عذاب إلا تعوّذ بالله منها، وسأل النجاة لنفسه ولجميع المسلمين، وكأنما جُمع له الرجاءُ والرهبةُ.

ومما روي عن ورعه ما قاله الحارث بن سريج: أراد الشافعي الخروج إلى مكة، فأسلم إلى قصّارٍ(قصّار بمعنى مغسلة) ثياباً بغداديةً مرتفعةً، فوقع الحريق، فاحترق دكان القصار (الغسال) والثياب، فجاء القصارُ ومعه قومٌ يتحمل بهم على الشافعي في تأخيره ليدفع قيمة

الثياب، فقال له الشافعي: قد اختلف أهل العلم في تضمين القصّار، ولم أتبين أن الضمان يجب، فلست أضمنك شيئًا .

للتوضيح

قال المصنف رحمه الله: والخياط بخياطته فإنه يضمن؛ لأنه قبض العين لمنفعته فأشبه المستعير، فأما إن تلفت من حرزه فلا يضمن؛ لأنه أمين فأشبه المودع.

فالمستعير ضامن والمودع لا يضمن، فإذا أردت أن تقضي بين الناس في أمر الضمان فكيّف المودع أو الشيء، هل هو مستعار أم هو أمانة مودعة.

فلو أن شخصاً استعار سيارتك لغرض ما ثم أخذها وفي الطريق اصطدم بسيارة أخرى لزمه الضمان؛ لأنه مستعير.

ولو ترك السيارة وديعة عندك وقال لك: اركبها إلى مسافة كذا فركبتها وبعد ذلك أصيبت بحادث فلا ضمان عليك؛ لأنه أذن لك بأن تركبها، وهي وديعة، والوديعة لا ضمان على صاحبها إلا إذا تعدى من أودعت عنده.

ومن أشعار الشافعي في الزهد:

تعصي الإلهَ وأنت تُظهر حُبَّهُ هذا محالٌ في القياسِ بديعُ

لو كان حبُّك صادقاً لأطعتَه إنَّ المحبَّ لمَن يحبُّ مُطيعُ

في كل يوم يبتديك بنعمةٍ منه وأنتَ لشكرِ ذاكَ مضيعُ

وقال الحارث بن سريج: دخلت مع الشافعي على خادم للرشيد، وهو في بيت قد فرش بالديباج، فلما وَضع الشافعيُ رجلَه على العتبة أبصره (أي أبصر الديباج)، فرجع ولم يدخل، فقال له الخادم: ادخل ولكن الشافعي رفض؟!

وعند هذا الحد نكون وصلنا لنهاية الفصل الثاني

لماذا لم يدخل الشافعي وماذا حدث بعد ذلك هذا ما سنعرفه الفصل القادم

الفصل الثالث

وقال الحارث بن سريج: دخلت مع الشافعي على خادم للرشيد، وهو في بيت قد فرش بالديباج، فلما وَضع الشافعيُ رجلَه على العتبة أبصره (أي أبصر الديباج)، فرجع ولم يدخل، فقال له الخادم: ادخل

فقال: لا يحل افتراشُ هذا

فقام الخادمُ متمشيًا، حتى دخل بيتًا قد فرش بالأرمني، فدخل الشافعي، ثم أقبل عليه

فقال: هذا حلال، وذاك حرام، وهذا أحسن من ذاك وأكثر ثمنًا منه.

فتبسم الخادم، وسكت.

وعن الربيع بن سليمان أنه قال:

قال الشافعي: ما شبعت منذ ست عشرة سنة إلا شبعةً اطّرحتها (يعني فطرحتها)؛ لأن الشبعَ يثقل البدن، ويقسي القلب، ويزيل الفطنة، ويجلب النوم، ويضعف صاحبه عن العبادة.

وقال الربيع بن سليمان: كان الشافعي جزَّأ الليل ثلاثة أجزاء: الأول يكتب، والثاني يصلي، والثالث ينام.

وكان الشافعيُّ يدعو إلى طلب العلم فيقول:

من تعلم القرآن عظمت قيمته، ومن كتب الحديث قويت حجته، ومن نظر في الفقه نبُل قدره، ومن نظر في اللغة رَقَّ طبعُه، ومن نظر في الحساب جزل رأيه، ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه.

وعن الحميدي أنه قال:

كان الشافعي ربما ألقى علي وعلى ابنه أبي عثمان المسألة، فيقول: أيكما أصاب فله دينار، وعن الربيع بن سليمان أنه قال: سمعت الشافعي يقول: طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.

شيوخ الإمام الشافعي

تلقى الشافعي الفقه والحديث على شيوخ قد تباعدت أماكنهم، وتخالفت مناهجهم، حتى لقد كان بعضهم معتزليًا ممن كانوا يشتغلون بعلم الكلام الذي كان الشافعي ينهى عنه، ولقد نال منهم ما رآه خيرًا، فأخذ ما يراه واجبَ الأخذ، وترك ما يراه واجبَ الرد، لقد أخذ الشافعي عن شيوخ بمكة وشيوخ بالمدينة وشيوخ باليمن وشيوخ بالعراق، ومشايخُه الذين روى عنهم كثيرون، أما المشهورون منهم والذين كانوا من أهل

الفقه والفتوى فهم عشرون، خمسة مكية، وستة مدنية، وأربعة يمانية، وخمسة عراقية.

أما الذين من أهل مكة فهم:

سفيان بن عيينة بن أبي عمران الهلالي ، ومسلم بن خالد بن فروة الزنجي، وسعيد بن سالم القداح،.وداود بن عبد الرحمن العطار، وعبد المجيد بن عبد العزيز بن أبي رواد.

وأما الذين من أهل المدينة فهم:

مالك بن أنس بن مالك الأصبحي المدني، إبراهيم بن سعد بن إبراهيم الزهري، عبد العزيز بن محمد بن عبيد بن أبي عبيد الدراوردي، إبراهيم بن محمد بن أبي يحيى الأسلمي، محمد بن أبي سعيد بن أبي فُدَيْك، عبد الله بن نافع الصائغ.

وأما الذين من أهل اليمن فهم:

مُطَرَّف بن مازن الصنعاني، هشام بن يوسف الصنعاني قاضي صنعاء، عمرو بن أبي سلمة التنيسي، وهو صاحب الأوزاعي، يحيى بن حسان بن حيان التنيسي البكري، وهو صاحب الليث بن سعد.

وأما الذين من أهل العراق فهم:

محمد بن الحسن بن فرقد الشيباني الحنفي، ووكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسي الكوفي، حماد بن أسامة بن زيد، أبو أسامة الكوفي، إسماعيل بن إبراهيم بن مقسم البصري، عبد الوهّاب بن عبد المجيد بن الصلت الثقفي البصري.

ومن هذا السياق يُستفاد أن الشافعي قد تلقى العلم على عدد من الشيوخ أصحابِ المذاهب والنزعات المختلفة، وبذلك يكون قد تلقى فقهَ أكثرِ المذاهب التي قامت في عصره، فتلقى فقه الإمام مالك عليه، وكان هو الأستاذ في شيوخه، وتلقى فقه الأوزاعي عن صاحبه عمرو بن أبي سلمة، وتلقى فقه الليث بن سعد فقيه مصر عن صاحبه يحيى بن حسان، ثم تلقى فقه أبي حنيفة وأصحابه على محمد بن الحسن الشيباني. وهكذا اجتمع له فقه مكة والمدينة والشام ومصر والعراق، ولم يجد حرجاً في أن يطلب الفقه عند من اشتهر بالاعتزال وعُرف أنه لا يَسلُكُ في طلب أصول الاعتقاد مسلك أهل الحديث والفقه، وإن رحلاتِه العلميةَ جعلته لا يقتصر في دراسته على فقهاء أهل السنة والجماعة الذين دخلوا في طاعة الخلفاء، بل كان يدرس آراء الشيعة وغيرِهم، ويظهر أثر ذلك في ثنائه على بعض علمائهم، فقد روي عنه

أنه قال: من أراد الفقه فهو عيال على أبي حنيفة، ومن أراد السِّيَرَ فهو عيال على محمد بن إسحاق، ومن أراد الحديث فهو عيال على مالك، ومن أراد التفسير فهو عيال على مقاتل بن سليمان.

ومقاتل بن سليمان هذا الذي جعله الشافعي إمام التفسير شيعي زيدي.

ذرية الشافعي

أنجب الشافعي أربعة أبناء هم: محمد (أبو عثمان)، وفاطمة، وزينب من أم واحدة، ومحمد (أبو الحسن) من جاريته المسماة دنانير.

أما محمد بن الشافعي: فهو الشيخ أبو عثمان القاضي، وهو أكبر أولاد الشافعي، ولما توفي والده كان بالغًا مقيمًا بمكة، وهو الذي قال له الإمام أحمد بن حنبل:

إني لأحبك لثلاث خلال: أنك ابن أبي عبد الله، وأنك رجل من قريش، وأنك من أهل السنة.

قيل أنه وُلّي القضاء ببغداد، وقيل أن هذا غير صحيح، إنما وُلّي القضاء بالجزيرة العربية وأعمالها، وولي أيضًا القضاء بمدينة حلب، وبقي بها سنين كثيرة، وأعقب ثلاثة بنين منهم: العباس بن محمد بن محمد بن إدريس.

وقد قيل للشافعي: ما اسم أبي عثمان؟

فقال: سميته أحب الأسماء إليّ: محمدًا. ولأبي عثمان مناظرة مع الإمام أحمد بن حنبل في جلود الميتة إذا دُبغت.

وعن محمد بن محمد بن إدريس الشافعي أنه قال: قال لي أحمد ابن حنبل:

أبوك أحد الستة الذين أدعو لهم في السحر. توفي بالجزيرة بعد سنة أربعين ومائتين (٢٤٠ هـ).

وللشافعي ولد آخر يسمى محمداً أيضاً، وكنيته أبو الحسن، وهو من جارية اسمها دنانير، قيل أنه قدم مصر مع أبيه وهو صغير، فتوفي بها في شعبان سنة إحدى وثلاثين ومائتين (٢٣١ هـ).

تلاميذه والرواة عنه

تلقى كثيرٌ من طلاب العلم والمتفقِّهين العلمَ على الإمام الشافعي، كما روى عنه أناسٌ كثيرون ....

من هم اللذين تلقوا العلم على يد الإمام الشافعي؟

الفصل الرابع

تلقى كثيرٌ من طلاب العلم والمتفقِّهين العلمَ على الإمام الشافعي، كما روى عنه أناسٌ كثيرون منهم:

إبراهيم بن خالد بن أبي اليمان أبو ثور الكلبي البغدادي.

أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الذهلي وهو أحد الأئمة الأربعة.

إسماعيل بن يحيى بن إسماعيل بن عمرو بن إسحاق، أبو إبراهيم المزني المصري،

قال فيه الشافعي: المزني ناصر مذهبي.

الحارث بن أسد أبو عبد الله المحاسبي، أحد مشايخ الصوفية.

الحارث بن سريج البغدادي أبو عمرو النقال.

حرملة بن يحيى بن عبد الله بن حرملة بن عمران التجيبي أبو حفص المصري.

الحسن بن محمد بن الصباح أبو علي البغدادي الزعفراني.

الحسين بن علي بن يزيد أبو علي البغدادي الكرابيسي.

الربيع بن سليمان بن داود الجيزي أبو محمد الأزدي.

الربيع بن سليمان بن عبد الجبار بن كامل المرادي وقال فيه الشافعي: الربيع راويتي، وقيل أنه آخر من روى عن الشافعي بمصر.

عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله الأسدي القرشي، الإمام أبو بكر الحميدي المكي.

يوسف بن يحيى القرشي أبو يعقوب البويطي المصري،

قال فيه الشافعي: ليس أحد أحق بمجلسي من أبي يعقوب، وليس أحد من أصحابي أعلم منه.

سليمان بن داود بن علي بن عبد الله بن عباس، أبو أيوب الهاشمي القرشي البغدادي.

عبد العزيز بن يحيى بن عبد العزيز بن مسلم بن ميمون، أبو الحسن الكناني المكي.

بحر بن نصر بن سابق الخولاني، أبو عبد الله المصري.

وبعد أن روى الشافعي عن الإمام مالك موطأه لزمه يتفقهُ عليه، ويدارسُه المسائلَ التي يفتي فيها الإمام، إلى أن مات الإمامُ سنة ١٧٩ هـ، وقد بلغ الشافعي شرخ الشباب، ويظهر أنه مع ملازمته للإمام مالك كان يقوم برحلات في البلاد الإسلامية يستفيد منها، ويتعلم أحوال الناس وأخبارهم، وكان يذهب إلى مكة يزور أمه ويستنصح بنصائحها. وكان الشافعي يقرأ القرآن وفقاً لقراءة ابن كثير المكي.

وعندما مات الإمام مالك، وأحس الشافعي أنه نال من العلم أشطرًا، وكان إلى ذلك الوقت فقيرًا، اتجهت نفسه إلى عمل يكتسب منه ما يدفع حاجته، ويمنع خصاصته، وصادف في ذلك الوقت أن قدم إلى مكة المكرمة والي اليمن، فكلمه بعض القرشيين في أن يصحبه الشافعي، فأخذه ذلك الوالي معه.

ويقول الشافعي في ذلك: ولم يكن عند أمي ما تعطيني ما أتحمل به، فرهنت داراً فتحملت معه، فلما قدمنا عملت له على عمل.

حتى أذن له مسلم بن خالد الزنجي مفتي مكة بالفتيا، فقد روي عن مسلم بن خالد الزنجي أنه

قال للشافعي: أفت يا أبا عبد الله، فقد والله آن لك أن تفتي، وهو ابن خمس عشرة سنة، وقيل: وهو ابن ثماني عشرة سنة، وقيل: وهو ابن دون عشرين سنة.

وفي هذا العمل تبدو مواهب الشافعي، فيشيع ذكرُه عادلاً ممتازًا، ويتحدث الناس باسمه في بطاح مكة.

ولما تولى الشافعي ذلك العمل أقام العدل، وكان الناس يصانعون الولاة والقضاة ويتملقونهم، ليجدوا عندهم سبيلاً إلى نفوسهم، ولكنهم وجدوا في الشافعي عدلاً لا سبيل إلى الاستيلاء على نفسه بالمصانعة والملق.

ويقول هو في ذلك: وليت نجران وبها بنو الحارث بن عبد المدان، وموالي ثقيف، وكان الوالي إذا أتاهم صانعوه، فأرادوني على نحو ذلك فلم يجدوا عندي.

ولكن بعدها سافر الشافعي إلى بغداد وكان بها والي ظالم .....

ماذا حدث مع هذا الوالي هذا ما سنعرفه في الفصل الخامس

الفصل الخامس

رحلته إلى بغداد ومحنته

لما نزل الشافعي باليمن، ومن أعمالها نجران، كان بها والٍ ظالم، فكان الشافعي يأخذ على يديه، أي ينصحه وينهاه، ويمنع مظالمه أن تصل إلى من تحت ولايته، وربما نال الشافعي ذلك الوالي بالنقد، فأخذ ذلك الوالي يكيد له بالدس والسعاية والوشاية.

وفي ذلك الزمانِ الذي كان فيه الحكمُ للعباسيين، كان العباسيون يُعادون خصومَهم العلويين، لأنهم يُدلون بمثل نسبهم، ولهم من رحم الرسول محمد ما ليس لهم، فإذا كانت دولة العباسيين قامت على النسب، فأولئك يَمُتُّون بمثله، وبرحم أقرب، ولذا كانوا إذا رأوا دعوة علوية قضوا عليها وهي في مهدها، ويقتلون في ذلك على الشبهة لا على الجزم واليقين، إذ يرون أن قتل بريء يستقيم به الأمر لهم، أولى من ترك مُتَّهمٍ يَجوز أن يُفسد الأمنَ عليهم.

جاء والي نجران العباسيين من هذه الناحية، وأرسل رسالة إلى خليفة المسلمين هارون الرشيد في بغداد يقول له واتهم الشافعي بأنه مع العلوية وإن تسعة من العلوية تحرَّكوا.

ثم قال في كتابه: إني أخاف أن يخرجوا، وإن ها هنا رجلاً من ولد شافع المطلبي لا أمر لي معه ولا نهي.

وقيل أنه قال في الشافعي: يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه.

فأصدر الخليفة أمراً لهذا الوالي أن يَحضرَ أولئك النفرُ التسعةُ من العلوية ومعهم الشافعي وأن يرسلهم إلى بغداد

وكبل هذا الوالي الشافعي في الحديد والقيود بتهمة الخروج على الدولة وذهب به إلى خليفة المسلمين في بغداد التي كانت عاصمة الخلافة حينئذٍ.

ووضعوا جميعهم في زنزانة واحدة وأخذ الوالي يحضر فردًا فردًا ويقال أنه قتل التسعة جميعهم وظل الشافعي إلى أن حان دورة لقتله ودخل ولكن لم يصمت الشافعي مثلما فعل الباقيين فكان مصيرهم القتل،

فلما دخل الشافعي على هارون، قال الشافعي: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

فرد الوالي عليه السلام فأردف الشافعي قائلا:

مهلاً يا أمير المؤمنين، فأنت الراعي وأنا المرعي، وأنت القادر على كل ما تريد مني، ثم قال:

يا أمير المؤمنين، ما تقول في رجلين أحدهما يراني أخاه، والآخر يراني عبده، أيهما أحب إلي؟

قال: الذي يراك أخاه.

قال: فذاك أنت يا أمير المؤمنين، إنكم ولد العباس، وهم ولد علي، ونحن بنو المطلب، فأنتم ولد العباس ترونا إخوتكم، وهم يروننا عبيدهم، ، فهل يعقل أن أترك من يقول: إني ابن عمه، وأن أذهب إلى من يقول إني عبد له، فاستوى هارون في مجلسه وعلم أنه أمام عالم فذ، وأمام واعظ كبير.

قال الرشيد: كيف علمك بكتاب الله فإنه أولى أن يبتدأ به؟

قال: جمعه الله في صدري وجعل دفتيه جنبي.

فقال: كيف علمك به؟

قال: أي علم تريد يا أمير المؤمنين، علم تأويله، أم علم تنزيله، مكيه أم مدنيه، ليليه أم نهاريه، أم سفريه أم حضريه، أم إنسيه أم وحشيه، أم نسقه وصفته، أم تسمية سوره؟

قال: فأعجب الرشيد ذلك

فقال: لقد ادعيت من القرآن أمراً عظيماً فكيف علمك بالفرائض- علم المواريث- ؟

قال: إني لأفرض الصلب، وأعرف اختلافهم في الجد.

قال: فكيف علمك بالأحكام؟

قال: في عتاق أم طلاق، أم في قضاء، أم في الأشربة، أم في المتاجرات.

قال: فكيف علمك بالطب؟

قال: أعرف منه ما قالت الروم وبابل وبقراط وساهمور وأرسطو طاليس وجالينوس.

قال: فكيف علمك بالنجوم؟

قال: أعرف منه القطب الدائر والمائي والناري، والمذكر والمؤنث، وما يهتدى به في البر والبحر.

قال: فكيف علمك بالشعر؟

قال: أعرف الشاذ منه وما نبه للمكارم.

قال: فكيف علمك بأنساب العرب؟

قال: أعرف منه نسب الكرام وفيهم نسب أمير المؤمنين ونسبي.

نظر إليه هارون وسعِد سعادة غامرة فقال الرشيد: لقد ادعيت من العلوم أمراً عظيماً تطول به المحنة فعظ أمير المؤمنين بموعظة.

يا ترى بماذا وعظه الإمام الشافعي هذا ما سنعرفه بالفصل السادس

الفصل السادس

"ما دمت قد طلبت الوصية إذا فاخلع رداء الكبر عن عاتقك، وضع تاج الهيبة عن رأسك، وانزع قميص التجبر عن جسدك، وفتش نفسك، وانشر سرك، وألقِ جلباب الحياء عن وجهك مستكينا بين يدي ربك، حتى أكون لك واعظا عن الحق، وتكون مستمعا بحسن القبول فينفعني الله بما أقول، وينفعك بما تسمع".

فقال الرشيد: "أما إني قد فعلت وسمعت لله والرسول وللواعظين بعدهما فعظ وأوجز".. فقال الشافعي: "أيا أمير المؤمنين اعلم أن الله جل ثناؤه امتحنك بالنعم وابتلاك بالشكر، ففضل النعمة أحسن لتستغرق بقلبها كثيرا من شكرك، فكن لله تعالى شاكرا، ولآلائه ذاكرا، تستحق منه عز وجل المزيد.

واتق الله في السر والعلن تستكمل الطاعة واسمع لقائل الحق، وإن كان دونك تشرق عند الله، وتزد في عين رعيتك واعلم أن الله سبحانه وتعالى يفتش سرك، فإن وجده بخلاف علانيتك شغلك بهم الدنيا، وفتق لك ما يزنق عليك، واستغنى الله، والله غني حميد، وإن وجد الله سبحانه سرك موافقا لعلانيتك أحبك وصرف هم الدنيا عن قلبك، وكفاك مؤنة نظرك لغيرك، وترك لك نظرا لنفسك، وكان سبحانه المقوي لسياستك.

ولن تطاع إلا بطاعتك له تعالى، فكن له طائعا تكتسب بذلك السلامة في العاجل، وحسن المنقلب في الآجل (فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون).

واحذر الله، حذر عبد عرف مكان عدوه وغاب عنه وليه، فتيقظ خوف السري، ولا تأمن من مكر الله لتوالي نعمة عليك، فإن ذلك مفسدة لك وذهاب لدينك، وعليك بكتاب الله الذي لا يضل المسترشد به، ولن تهلك ما تمسكت به فاعتصم بالله تجده تجاهك، وعليك بسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، تكن على طريقة الذين هداهم الله فبهداهم اقتده.

وما نصب الخلفاء المهديون في الخراج والأراضين والسواد والمساكن والديارات، فكن لهم تبعا، وبه عاملا راضيا مسلما، واحذر التلبيس فيه، فإنك مسئول عن رعيتك. وعليك بالمهاجرين والأنصار الذين تبوءوا الدار والإيمان فأقبل على محسنهم، وتجاوز عن مسيئهم، وآتهم من مال الله الذي أتاك، ولا تكرههم على إمساك عن حق، ولا على خوض في باطل..

فإنهم الذين مكنوا لك البلاد واستخلصوا لك العباد، ونوروا لك الظلمة، وكشفوا عنك الغمة، وقلدوك الرئاسة، وكن لله كما تحب أن يكون لك أوليائك من العامة من السمع والطاعة، فإنه ما ولي أحد على عشرة من المسلمين فلم يحطهم بنصيحة إلا وجاء يوم القيامة ويده مغلولة إلى عنقه لا يفكها إلا عدله..

وأنت أعرف بنفسك"..

فبكى هارون الرشيد بكاء وعلا نحيبه، وبكى من كان بالمجلس.. وأراد أحد الجلساء أن يُسكت الشافعي.

فأقبل عليه الشافعي اسكت أخرسك الله لا تُذهب بنور الحكمة يا عبيد الرعاع وعبيد الصوت والعصا. انتقم الله منكم لتلبيسكم الحق عليه أما والله ما زالت الخلافة بخير ما منع عنها أمثالكم، ولن تزال بشر ما اعتصمت بكم، فرفع الرشيد رأسه وأشار إليهم أن كفوا..

وأقبل على الشافعي وقال له: "لقد أمرت لك بصلة من المال فاقبلها"

فقال له الشافعي: "كلا والله لا يراني الله تعالى قد سودت وجه موعظتي بقبول الجزاء عليها، ولقد عاهدت الله أني لا أحبك بملك من الملوك تكبر في نفسه وتصغر عند ربه"..

ويقال أن هارون الرشيد التفت إلى محمد بن الحسن فقال: ناظره بين يدي حتى أكون فاصلاً بينكما.

قال: فالتفت محمد بن الحسن إلى محمد بن إدريس

فقال: ما تقول يا شافعي في رجل تزوج بامرأة ودخل بها، وتزوج ثانية ولم يدخل بها، وتزوج ثالثة ودخل بها، وتزوج رابعة ولم يدخل بها، أصاب الثانية أم الأولى والرابعة عمة الثالثة؟

يا ترى بماذا رد الشافعي عليه وماذا حدث في هذه المناظرة هذا ما سنعرفة في الفصل السابع

الفصل السابع

قال: فالتفت محمد بن الحسن إلى محمد بن إدريس

فقال: ما تقول يا شافعي في رجل تزوج بامرأة ودخل بها، وتزوج ثانية ولم يدخل بها، وتزوج ثالثة ودخل بها، وتزوج رابعة ولم يدخل بها، أصاب الثانية أم الأولى والرابعة عمة الثالثة؟

قال الشافعي: ينزل عن الثانية والرابعة من غير أن يلزمه شيءٌ، ويتمسك بالأولى والثالثة.

قال محمد: ما حجتك؟

قال: أما الثانية فإن الله عز وجل يقول: " فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم" ، وأما الرابعة فإن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن تنكح المرأة على عمتها أو على خالتها.

ثم قال الشافعي: ما تقول أنت يا محمد بن الحسن كيف استقبل النبي صلى الله عليه وسلم يوم النحر وكبر؟

قال: فتعتع محمد بن الحسن.

قال الراوي: ولو سأله كيف فعل أبو حنيفة لأخبره.

فقال الشافعي: يا أمير المؤمنين سألني عن الأحكام فأجبته، وسألته عن سنة من سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحتاج إليها الصادر والوارد فلا يجيبني، أمن الإنصاف هذا؟

فتبسم الرشيد وأمر له بعشرة آلاف درهم. فخرج الشافعي ففرقها على باب داره، وانصرف مكرماً.

ولم يلبث فيها إلا قليلاً حتى عاد مرة أخرى إلى مكة زادها الله تشريفاً وتكريماً.

كان الشافعي قد وصل إلى مرحلة فريدة في العلم، فجلس الشافعي في مكة يؤصل الأصول، ويقعد القواعد، واتخذ له حلقة في مسجد الله الحرام، جمعت إليه الناس ولفتت إليه الأنظار، وازدحمت حلقة الشافعي ازدحاماً عجيباً، حتى إن الإمام أحمد إمام أهل السنة جاء حاجاً من بغداد من بلاد العراق إلى مكة المكرمة شرفها الله، فترك الإمام أحمد حلقة شيخ الشافعي سفيان بن عيينة، وعكف في حلقة الشافعي، بل ولم يكتفِ الإمام بهذا، إنما ذهب إلى أخيه وصاحب

رحلته إسحاق بن راهويه وقال: تعال يا إسحاق أريك رجلاً بـ مكة ما رأت عيناك مثله، يقول إسحاق: فأراني أحمد الشافعي.

وأُعجب الإمام أحمد بذكاء وعلم الشافعي إعجاباً رهيباً، لأنه يسمع أصولاً وقواعد لأول مرة يسمعها وغيره من أهل العلم، فإن أول من أصَّل الأصول وقعد القواعد هو الإمام الشافعي رضي الله عنه وأرضاه، حتى قال أحمد قولته الخالدة الجميلة: لولا الشافعي ما تعلمنا فقه الحديث، وقال: كان الفقه مغلقاً على أهله حتى فتحه الله بـ الشافعي، وقال: ما من أحد مس محبرة ولا قلماً بعد الشافعي إلا وله في عنقه منّة، وقال: والله ما أعلم أحداً أعظم منة وبركة على الإسلام في زمن الشافعي من الشافعي.

لما ذهب الشافعي لزيارة الإمام أحمد وهو على فراش المرض -بعدما رحل الشافعي إلى العراق رحلته الثانية مرض أحمد - وكان الشافعي يحبه، كما كان أحمد يحب أستاذه الشافعي، يقول صالح بن الإمام أحمد: وكان أبي عليلاً نائماً في فراشه، فلما دخل عليه الشافعي.... حدثت شيء عجيب

الفصل الثامن

وجدت أبي قد وثب من فراشه وقام إلى الشافعي وقبله بين عينيه وأجلسه في مكانه وجلس أبي بين قدميه، وجعل أبي يسائله ساعة، فلما قام الشافعي ليركب دابته، قام أبي وأخذ بخطام الدابة يقودها للشافعي، فلما علم يحيى بن معين جاء إلى الإمام أحمد وقال: يا أبا عبد الله! أضطرك الأمر إلى أن تجر خطام بغلة الشافعي؟! -إلى أن تمشي إلى جوار بغلة الشافعي - فقال أحمد: نعم يا أبا زكريا، ولو مشيت أنت من الجانب الآخر لانتفعت كثيراً، والله من أراد الفقه فليلزم الشافعي، حتى جلس الإمام أحمد يوماً في مجلس علمه فقال لطلبته: ما ترون هذا أو عامته -أي: من علمِ- فإنما هو من الشافعي، ثم قال: والله ما بتُّ منذ أربعين سنة إلا وأناً أدعو الله للشافعي، حتى قال له ولده عبد الله يوماً: يا أبتِ! من هذا الشافعي الذي أراك تكثر الدعاء له؟ فقال الإمام أحمد: يا بني إن الشافعي كان كالشمس للدنيا وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو لهما من عوض.

هذا قول الإمام أحمد -وهو من هو- في أستاذه الشافعي.

وقال فيه أيضاً إمام الجرح والتعديل يحيى بن سعيد القطان: "والله ما رأيت أعقل ولا أفقه من الشافعي " وقال الإمام العلم أبو القاسم عبيد الله بن سلام: والله ما رأيت أفقه ولا أفهم من الشافعي، ولو استطردت مع أقوال الأئمة من أئمة الجرح والتعديل لطال بنا المقام، وكفانا أن نستمع إلى قول أحمد في الشافعي رضي الله عنهما بل وعنهم جميعاً.

كان قدوم الشافعي بغداد في هذه المحنة سنة ١٨٤ هـ، أي وهو في الرابعة والثلاثين من عمره، فكانت هذه المحنة خيراً له، فقد وجَّهته إلى العلم بدل الولاية وتدبير شؤون السلطان، ذلك بأنه نزل عند محمد بن الحسن، وكان من قبلُ يسمع باسمه وفقهه، وأنه حاملُ فقه العراقيين وناشرُه، وربما التقى به من قبل. أخذ الشافعي يدرس فقه العراقيين، فقرأ كتب الإمام محمد وتلقاها عليه، وبذلك اجتمع له فقه الحجاز وفقه العراق، اجتمع له الفقه الذي يغلب عليه النقل، والفقه الذي يغلب عليه العقل، وتخرج بذلك على كبار الفقهاء في زمانه، ولقد قال في ذلك ابن حجر: انتهت رياسة الفقه في المدينة إلى مالك

بن أنس، فرحل إليه ولازمه وأخذ عنه، وانتهت رياسة الفقه في العراق إلى أبي حنيفة، فأخذ عن صاحبه محمد بن الحسن حملاً، ليس فيه شيء إلا وقد سمعه عليه، فاجتمع علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، فتصرف في ذلك حتى أصَّل الأصول، وقعَّد القواعد، وأذعن له الموافق والمخالف، واشتهر أمره، وعلا ذكره، وارتفع قدره حتى صار منه ما صار.

وقد كان الشافعي يلزم حلقة محمد بن الحسن الشيباني.

قال الشافعي: أنفقت على كتب محمد بن الحسن ستين ديناراً، ثم تدبرتها، فوضعت إلى جنب كل مسألة حديثاً (يعني: رداً عليه)، ولكنه كان مع ذلك يعتبر نفسه من صحابة مالك، ومن فقهاء مذهبه، وحملة موطأه، يحامي عليه ويذب عنه ويدافع عن فقه أهل المدينة، ولذلك كان إذا قام محمد من مجلسه ناظر أصحابه، ودافع عن فقه الحجازيين وطريقتهم.

قال الشافعي: وكان محمد بن الحسن جيد المنزلة، فاختلفت إليه وقلت: هذا أشبه لي من طريق العلم، فلزمته، وكتبت كتبه، وعرفت قولهم، وكان إذا قام ناظرت أصحابه، ولعله كان لا يناظر محمداً نفسَه إعظاماً لمكان الأستاذ، ولكن محمداً بلغه أنه يناظر أصحابه، فطلب منه أن يناظره، فاستحيا وامتنع، وأصر محمد، فناظره مستكرهًا في مسألة كَثُرَ استنكارُ أهل العراق فيها لرأي أهل الحجاز، وهي (مسألة الشاهد واليمين) فناقش الشافعيُ محمداً فيها، ويقول الرواة من الشافعية أن الفلجَ كان للشافعي.

عودته إلى مكة ووضع أصول الفقه

أقام الشافعي في بغداد تلميذاً لابن حسن، ومناظراً له ولأصحابه على أنه فقيه مدني من أصحاب مالك، ثم انتقل بعد ذلك إلى مكة، ومعه من كتب العراقيين حِملُ بعير، ولم يذكر أكثرُ الرواة مدة إقامته في بغداد في هذه القدمة، ولا بد أنه أقام مدة معقولة تكفي للتخرج على أهل الرأي ومدارستِهم، ولعلها كانت نحو سنتين.

عاد الشافعي إلى مكة، وأخذ يُلقي دروسه في الحرم المكي، والتقى به أكبر العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي هذا الوقت التقى به أحمد بن حنبل،

الفصل التاسع

عاد الشافعي إلى مكة، وأخذ يُلقي دروسه في الحرم المكي، والتقى به أكبر العلماء في موسم الحج، واستمعوا إليه، وفي هذا الوقت التقى به أحمد بن حنبل، وقد أخذت شخصية الشافعي تظهر بفقه جديد، لا هو فقهُ أهلِ المدينةِ وحدَهم، ولا فقهَ أهلِ العراقِ وحدَهم، بل هو مزيج منهما وخلاصةُ عقل الشافعي الذي أنضجه علم الكتاب والسنة، وعلمُ العربية وأخبار الناس والقياس والرأي، ولذلك كان من يلتقي به من العلماء يرى فيه عالماً هو نسيجٌ وحدَه.

أقام الشافعي بمكة نحوًا من تسع سنوات، ولا بد أن الشافعي بعد أن رأى نوعين مختلفين من الفقه، وبعد أن ناظر وجادل، وجد أنه لا بد من وضع مقاييس لمعرفة الحق من الباطل، أو على الأقل لمعرفة ما هو أقرب للحق، فإنه ليس من المعقول بعد أن شاهد وعاين ما بين نظرِ الحجازيين والعراقيين من اختلاف، ولأصحاب النظرين مكانٌ من احترامه وتقديره، أن يحكمَ ببطلان أحدِ النظرين جملةً من غير ميزان ضابط دقيق، لهذا فكَّر في استخراج قواعد الاستنباط، فتوافر على الكتاب يعرف طرق دلالاته، وعلى الأحكام يعرف ناسخها ومنسوخها، وخصائص كل منهما، وعلى السنة يعرف مكانها من علم الشريعة، ومعرفة صحيحها وسقيمها، وطرق الاستدلال بها، ومقامها من القرآن الكريم، ثم كيف يستخرج الأحكام إذا لم يكن كتاب ولا سنة، وما ضوابط الاجتهاد في هذا المقام، وما الحدود التي تُرسَم للمجتهد فلا يعدوها، ليأمن من شطط الاجتهاد. لأجل هذا طال مقامه، مع أنه كان صاحب سفر، فهو لا بد في هذه الأثناء قد انتهى إلى وضع أصول الاستنباط وخرج بها على الناس، ولعله عندما انتهى إلى قدر يصحُّ إخراجُه وعرضُه للجمهرة من الفقهاء، سافر إلى بغداد التي كانت عشَّ الفقهاء جميعاً، إذ ضَؤلَ أمرُ المدينة بعد وفاة الإمام مالك، وبعد أن صار ببغداد أهلُ الرأي وأهلُ الحديث معاً.

مجادلته لمخالفيه وأسلوبه في ذلك ورحلة الثانية إلى بغداد

بعد قدوم الشافعي إلى بغداد سنة ١٩٥ هـ، بل قبل ذلك في دراسته بمكة، كان صاحبَ طريقة جديدة في الفقه، وصاحبَ آراءٍ جديدةٍ فيه تنفصل عن آراء الإمام مالك، ولكنه لم يتجهْ إلى آراء مالك بنقد أو تزييف، بل كان يُلقي بآرائه خالفت أو وافقت رأيَ مالك من غير نقد له، ولذلك كان يُعَدُّ من أصحاب مالك، وإن كان في جملة آراءه ما

يخالفه قليلاً أو كثيراً، كما خالف بعضُ أصحاب مالك مالكاً، وكما خالف بعضُ أصحاب أبي حنيفة شيخَهم، ولكن حدث ما اضطر الشافعي إلى أن يتجه لآراء شيخه مالكٍ بالنقد، ذلك أنه بلغه أن مالكاً تُقدَّس آثارُه وثيابُه في بعض البلاد الإسلامية، وأن من المسلمين أناساً يُتحدَّث إليهم بحديث رسول الإسلام محمد، فيُعارضون الحديث بقول مالك، فتقدم الشافعي الذي لقبه العلماء في عصره بناصر الحديث، ووجد طريقاً معيَّناً ليسلكَه، وهو أن ينقدَ آراءَ مالك، ليعلم الناسُ أن مالكاً بشرٌ يخطئ ويصيب، وأنه لا رأي له مع الحديث، فألف في ذلك كتاباً سماه (خلاف مالك)، ولكنه تردد في إعلانه وفاءً لمالكٍ شيخِه وأستاذِه، والذي كان يقول عنه طوال حياته أنه الأستاذ، يتردد بين إرشاد الناس لما رآه أخطاءً لمالك، وهو يخشى على السُنَّة من تقديس الناس له، وبين الوفاء له، فطوى الكتاب لمدة سنة وهو متردد، ثم استخار فنشره.

ويروي الفخر الرازي: أن الشافعي إنما وضع الكتاب على مالك لأنه بلغه أن بالأندلس قلنسوة لمالك يُستقى بها، وكان يقال لهم قال رسول الله ﷺ فيقولون قولَ مالك، فقال الشافعي: إن مالكاً آدمي قد يخطئ ويغلط، فصار ذلك داعياً للشافعي إلى وضع الكتاب على مالك، وكان يقول: كرهت أن أفعل ذلك، ولكني استخرت الله تعالى فيه سنة.

أدى نقدُ الشافعي للإمام مالك إلى وقوعه في المتاعب والمصاعب، وذلك لأن الإمامَ مالكاً كان له المكانُ الأولُ بين المجتهدين في مصر، فثار على الشافعي المالكيون ينقُدونه ويجرِّحونه ويطعنون عليه، حتى ذهب جمهرتُهم إلى الوالي يطلبون إخراجَه، ويقول في ذلك الرازي: لما وضع الشافعيُّ كتابَه على مالك ذهب أصحابُ مالك إلى السلطان والتمسوا منه إخراج الشافعي.

ولم ينقد الشافعي آراء مالك فقط، بل نقد مِن قبلُ آراءَ العراقيين أبي حنيفة وأصحابِه وغيرِهم من فقهاء العراق، كما نقد آراءَ الأوزاعي، وكان لكل هؤلاء أنصارٌ من رجال الفقه في عهده، يتعصبون لهم وينافحون عنهم، فبنقدهم انبثق على الشافعي البثقُ الكبيرُ من الجدل والمناظرة، فكان يجادل ويصاول، من غير أن يمسَّ صاحبَ الرأي بسوء.

كان الشافعي يميل في جداله دائماً إلى نصرة الحديث ورجال الحديث، مع علمه بالجدل وأساليبه، وقد بهت أهلَ الرأي في أول التقائه بهم في بغداد سنة ١٨٤ هـ، ويقول الرازي في ذلك:

الناس كانوا قبل زمان الشافعي فريقين: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، أما أصحاب الحديث فكانوا حافظين لأخبار رسول الله ﷺ، إلا أنهم كانوا عاجزين عن النظر والجدل، وكلما أورد عليهم أحد من أصحاب الرأي سؤالاً أو إشكالاً سقطوا في أيديهم عاجزين متحيرين، وأما أصحاب الرأي فكانوا أصحاب النظر والجدل، إلا أنهم كانوا عاجزين عن الآثار والسنن، وأما الشافعي رضيَ الله عنه فكان عارفاً بسنة رسول الله ﷺ، محيطاً بقوانينها، وكان عارفاً بآداب النظر والجدل قوياً فيه، وكان فصيحَ الكلام، قادراً على قهر الخصوم بالحجة الظاهرة، وآخذاً في نصرة أحاديث رسول الله ﷺ، وكل من أورد عليه سؤالاً أو إشكالاً أجاب عنه بأجوبة شافية كافية، فانقطع بسببه استيلاءُ أهل الرأي على أصحاب الحديث.

ولما أصَّل الأصولَ ووضع القواعدَ، وجد أن بعض الفقهاء من أهل الحجاز يخرج على هذه الأصول ولا يتقيد بها، ومنهم شيخه الإمام مالك، فوجده يأخذ بالأصل ويترك الفرع، ويأخذ الفرع ويترك الأصل، فجادل أهل الحجاز أيضاً، وبذلك قضى حياته كلَّها في نضال لأجل فقه الشريعة الإسلامية.

قضى حياته كلَّها في نضال لأجل فقه الشريعة الإسلامية.

الفصل العاشر

يعتد كتاب الرسالة: أول كتاب صُنف في أصول الفقه، كتبه الشافعي مرتين، الأولى في بغداد، والثانية في مصر.

وعندما قدم الشافعي بغداد للمرة الثانية في سنة ١٩٥ هـ، وقد قدم وله طريقةٌ في الفقه لم يسبق بها، وجاء وهو لا ينظر إلى الفروع يفصِّل أحكامَها وإلى المسائل الجزئية يفتي فيها فقط، بل جاء وهو يحمل قواعد كلية، أصَّل أصولها، وضبط بها المسائل الجزئية، فقد جاء إذن بالفقه علماً كلياً لا فروعاً جزئيةً، وقواعدَ عامةً لا فتاوىً وأقضيةً خاصةً، فرأت فيه بغداد ذلك، فانسال عليه العلماء والمتفقهون، وطلبه المحدثون وأهل الرأي جميعاً. وفي هذه القدمة ذُكر أنه ألف لأول مرة من كتاب الرسالة الذي وضع به الأساس لعلم أصول الفقه. وقد رُوي أن عبد الرحمن بن مهدي التمس من الشافعي وهو شاب أن يضع له كتاباً يذكر فيه شرائط الاستدلال بالقرآن والسنة والإجماع والقياس وبيان الناسخ والمنسوخ ومراتب العموم والخصوص، فوضع الشافعي كتاب الرسالة وبعثه إليه، فلما قرأه عبد الرحمن بن مهدي قال: ما أظن أن الله عز وجل خلق مثل هذا الرجل. وقيل أن الشافعي قد صنف كتاب الرسالة وهو ببغداد، ولما رجع إلى مصر أعاد تصنيف كتاب الرسالة.

أخذ الشافعي ينشر بالعراق تلك الطريقةَ الجديدةَ التي استنَّها، ويجادلُ على أساسها، وينقد مسائل العلم على أصولها، ويؤلف الكتب وينشر الرسائل، ويتخرج عليه رجالُ الفقه، ومكث في هذه القدمة سنتين، ثم عاد بعد ذلك إليها سنة ١٩٨ هـ وأقام أشهراً فيها، ثم اعتزم السفر إلى مصر، فرحل إليها، وقد وصل سنة ١٩٩ هـ.

أما سببُ تقصيرِه الإقامةَ في بغداد في هذه القدمة الأخيرة، مع أنها كانت عشَّ العلماء، وقد صار له بها تلاميذُ ومريدون، والعلم ينتشر بين ربوعها، ولم يكن لمصر في ذلك الوقت مكانةٌ علميةٌ كمكانة بغداد أو تقاربها، فهو أنه في سنة ١٩٨ هـ كانت الخلافة لعبد الله المأمون، وفي عهد المأمون ساد أمر لا يستطيب الشافعيُ الإقامةَ في ظله، وهو أن المأمون كان من الفلاسفة المتكلمين، فأدنى إليه المعتزلة، وجعل منهم كُتَّابَه وحُجَّابَه وجلساءَه، والمقرَّبين إليه الأدنين، والمحكَّمين في العلم وأهله، والشافعي كان ينفر من المعتزلة ومناهج بحثهم، ويفرض عقوبة على بعض من يخوض مثل خوضهم، ويتكلم في العقائد على

طريقتهم، فما كان لمثل الشافعي أن يرضى بالمقام معهم، وتحت ظل الخليفة الذي مكَّن لهم، حتى أدَّاه الأمرُ بعد ذلك إلى أن أنزل بالفقهاء والمحدثين المحنة التي تسمى محنة خلق القرآن، وروي أن المأمون عرض على الشافعي أن يولِّيَه القضاء، فاعتذر الشافعي.

رحلته إلى مصر

لم يَطِبْ للشافعي المقامُ ببغداد، وكان لا بد من الرحيل منها، ولم يجد مهاجَراً ولا سَعةً إلا في مصر، ذلك أن واليَها عباسيٌّ هاشميٌّ قرشيٌّ، قال ياقوت الحموي: وكان سبب قدومه إلى مصر أن العباس بن عبد الله بن العباس بن موسى بن عبد الله بن عباس دعاه، وكان العباسُ هذا خليفةً لعبد الله المأمون على مصر.

ولقد قال الشافعي عندما أراد السفر إلى مصر:

لقد أصبحتْ نفسي تتوق إلى مصرِ

ومن دونها قطعُ المهامةِ والفقرِ

فواللـه ما أدري، الفوزُ والغنى

أُساق إليها أم أُساق إلى القبرِ

قدم الشافعي مصر سنة ١٩٩ هـ، ومات فيها سنة ٢٠٤ هـ، وقد رُوي عن الربيع بن سليمان أنه قال:

وقال لي يوماً (يقصد الشافعي): كيف تركت أهل مصر؟

فقلت: تركتهم على ضربين: فرقةٌ منهم قد مالت إلى قول مالك، وأخذت به واعتمدت عليه وذبَّت عنه وناضلت عنه، وفرقةٌ قد مالت إلى قول أبي حنيفة، فأخذت به وناضلت عنه.

فقال: أرجو أن أقدم مصر إن شاء الله، وآتيهم بشيء أشغلهم به عن القولين جميعاً.

قال الربيع: ففعل ذلك والله حين دخل مصر.

ولما قدم الشافعي مصر نزل على أخواله الأزد، قال ياسين بن عبد الواحد: لما قدم علينا الشافعي مصر، أتاه جَدِّي وأنا معه فسأله أن ينزلَ عليه، فأبى

وقال: إني أريد أن أنزل على أخوالي الأزد.

فنزل عليهم. وقد ذكر الإمام أحمد أن الشافعي قصد من نزوله على أخواله متابعةَ السنةِ فيما فعل النبي حين قدم المدينة من النزول على أخواله، فقد نزل النبي حين قدم المدينة على بني النجار، وهم أخوال عبد المطلب.

وقال هارون بن سعد الأيلي: ما رأيت مثل الشافعي، قدم علينا مصر، فقالوا: قدم رجلٌ من قريش، فجئناه وهو يصلي، فما رأيت أحسنَ صلاةً منه، ولا أحسنَ وجهاً منه، فلما قضى صلاته تكلم، فما رأيت أحسنَ كلاماً منه، فافتتنَّا به.

وفاته

يقول الكندي: لما دخل الشافعي مصر، كان ابن المنكدر يصيح خلفه: دخلتَ هذه البلدة وأمرنا واحد، ففرّقت بيننا وألقيت بيننا الشر، فرّقَ الله بين روحك وجسمك.

واصطدم كذلك بأحد تلاميذ الامام مالك المقربين ممن ساهم بنشر مذهبه في مصر، وهو أشهب بن عبد العزيز.

الفصل الحادي عشر

واصطدم كذلك بأحد تلاميذ الامام مالك المقربين ممن ساهم بنشر مذهبه في مصر، وهو أشهب بن عبد العزيز.

وكان أشهب يدعو في سجوده بالموت على الإمام الشافعي. وروى ابن عساكر عن محمد بن عبد الله بن عبدِ الْحَكَمِ أَنَّ أَشْهَبَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: اللَّهُمَّ أَمِتْ الشَّافِعِيَّ، فَإِنَّكَ إِنْ أَبْقَيْتَهُ اِنْدَرَسَ مَذْهَبُ مَالِكٍ. وروى ذلك ابن مندة عن الربيع أنه رأى أشهب يقول ذلك في سجوده. ثم قام المالكية بضرب الإمام الشافعي ضرباً عنيفاً بالهراوات حتى تسبب هذا بقتله وعمره ٥٤ عاماً فقط، ودُفن بمصر.

ويقال أن سبب موت الشافعي هو مرض البواسير الذي أصابه، فقد روى الربيع بن سليمان حالَ الشافعي في آخر حياته فقال: أقام الشافعي ها هنا (أي في مصر) أربع سنين، فأملى ألفاً وخمسمئة ورقة، وخرَّج كتاب الأم ألفي ورقة، وكتاب السنن، وأشياء كثيرة كلها في مدة أربع سنين، وكان عليلاً شديد العلة، وربما خرج الدم وهو راكب حتى تمتلئ سراويله وخفه (يعني من البواسير).

ومن أجمل ما قرأت أن تلميذ الشافعي الإمام المزني، ذهب إليه يوماً، يقول المزني: خطر بخاطري مسألة تتعلق بذات الله فقلت: لا يخرج ما في ضميري إلا الشافعي، فذهبت إليه في مجلسه وسألته عنها، فغضب الشافعي ونظر إلي

وقال الشافعي: أبلغك أن الله تبارك وتعالى قد أمر بالسؤال عن هذا؟

قال المزني: لا.

الشافعي: أبلغك أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أمرك بالسؤال عن هذا؟

المزني: لا.

الشافعي: أبلغك أن الصحابة رضوان الله عليهم قد تكلموا في هذا؟

المزني: لا.

الشافعي: فكم نجماً في السماء؟

المزني: لا أعلم.

الشافعي : فكوكب منها أتعلم جنسه وطلوعه وأفوله ومم خلق؟

المزني: لا.

فقال الشافعي: فشيء تراه بعينك من خلق الله عز وجل لا تعلمه، تتكلف أن تعلم خالقه جل جلاله.

ثم قال الشافعي: يا هذا! إذا هجس في خاطرك شيء من هذا فارجع إلى الله تبارك وتعالى وارجع إلى قوله جل وعلا: يسم الله الرحمن الرحيم {إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [البقرة:١٦٤]

ثم قال له الشافعي: فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك.

انظر لتلك الشجره ذات الغصون النضره

كيف نمت من حبةٍ وكيف صارت شجره

ابحث وقل من ذا الذي يخرج منها الثمره

ذاك هو الله الذي أنعمه منهمره

ذو حكمة بالغة وقدرة مقتدره

سل الواحة الخضراء والماء جاريا وهذه الصحاري والجبال الرواسيا

سل الزهر مزدانا سل الروض والندى سل الليل والإصباح والطير شاديا

وسل هذه الأنسام والأرض والسما سل كل شيء تسمع التوحيد لله ساريا

ولو جن هذا الليل وامتد سرمدا فمن غير ربي يرجع الصبح ثانيا

أإله مع الله؟ لا رب غيره ولا معبود سواه.

قل للطبيب تخطفته يد الردى يا شافي الأمراض من أرداكا

قل للمريض نجا وعوفي بعدما عجزت فنون الطب من عافاكا

قل للصحيح يموت لا من علة من بالمنايا يا صحيح دهاكا

بل سائل الأعمى خطا وسط الزحا م بلا اصطدام من يقود خطاكا

بل سائل المبصر يحذر حفرة فهوى بها من ذا الذي أهواكا

وسل الجنين يعيش معزولاً بلا راعٍ ومرعى ما الذي يرعاكا

وسل الوليد بكى وأجهش بالبكاء لدى الولادة ما الذي أبكاكا

وإذا ترى الثعبان ينفث سمه فاسأله من ذا بالسموم حشاكا

واسأله كيف تعيش يا ثعبان أو تحيا وهذا السم يملأ فاكا

واسأل بطون النحل كيف تقاطرت شهداً وقل للشهد من حلاكا

بل سائل اللبن المصفى بين فر ث ودم من ذا الذي صفاكا

أإله مع الله.

فاستدل بالمخلوق على الخالق، ولا تتكلف علم ما لم يبلغه عقلك: {وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبّاً فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ * لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلا يَشْكُرُونَ * سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لا يَعْلَمُونَ وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ} [يس:٣٣-٤٠]

أإله مع الله؟!!! لا رب غيره ولا رب سواه.

الله ربي لا إله سواه هل في الوجود حقيقة إلا هو

الشمس والبدر من أنوار حكمته والبر والبحر فيض من عطاياه

الطير سبحه والوحش مجده والموج كبره والحوت ناجاه

والنمل تحت الصخور الصم قدسه والنحل يهتف حمداً في خلاياه

والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربي ليس ينساه

أإله مع الله؟!! لا رب غيره ولا معبود سواه.

ويقال أيضًا أنه كان يوجد شخص من أهل البدع والضلال اسمه بشر الريسي ودخل عليه الشافعي وهو يقول أخبرني عما تدعو إليه فماذا حدث في هذه المناظرة وماذا فعل الشافعي مع هذا الشخص الضال هذا

الفصل الثاني عشر

دخل الشافعي على بشر المريسي -وهو سيد من سادات أهل البدع والضلال- على الإمام الشافعي، فقال الشافعي لـ بشر: أخبرني عما تدعو إليه.

قال الشافعي لـ بشر: أخبرني عما تدعو إليه.

أكتاب ناطق (يعني هل تستند فيما تقول إلى كتاب الله عز وجل) أو سنة قائمة (حجتك فيما تقول قال الله قال الرسول) ووجدت عن السلف البحث فيه والسؤال؟

فقال بشر : لا، إلا أنه لا يسعنا خلافه.

فقال الشافعي: أقررت بنفسك على الخطأ، يعني (أنت حكمت على نفسك أنك مخطئ)؛ لأن ما أتيت به إنما هو قول اتبعته وأتيت به من عند نفسك لا من عند الله عز وجل.

قال الشافعي: فأين أنت عن الكلام في الفقه والأخبار تواليك الناس عليه فتترك هذا؟

قال بشر: لي نبذ فيه، وهكذا شغل بشر نفسه بما حرم الله عز وجل عليه أن يشتغل به.

فلما خرج بشر من عند الشافعي

قال الشافعي: لا يفلح.

وطلب الملحدون المنكرون لوجود الله تعالى و وحدانيته من الإمام الشافعى دليلاّ عقلياّ يثبت لهم به وجود الله تعالى و وحدانيته .

فكر الإمام الشافعى رضى الله عنه برهة من الوقت

وكان يجلس تحت شجرة توت فأتى بورقه منها

وقال : أنا أثبت لكم بهذه الورقة وجود الله تعالى و وحدانيته

قالوا له : كيف ذلك يا شافعي؟

قال الشافعي : هذه الورقة طعمها واحد فى شجرتها ولونها واحد وطبعها واحد .

أليس كذلك : بلى نعم ورغم ذلك .

تأكلها الدود : فتخرجها حريراّ طرياّ .

وتأكلها الظباء والغزلان .. فتخرجها مسكاً نديآ.

وتأكلها الأبقار والأغنام .. فتخرجها لبناً صافياً

وتأكلها النحلة.. فتخرجها عسلاً شهياً

فمن الذى جعل هذه الأشياء كذلك مع أن الأصل واحد .

فاستحسن الناس كلام الإمام الشافعي وأعجبوا بذكائه وفطنته وأسلم كثير من الملحدين على يديه .

وكذلك عاش الشافعي ليكتب ويدون علمه ومن مصنفاته

كتاب الأم للشافعي وللشافعي الكثير من المصنفات في أصول الفقه وفروعه، أما الكتب التي تجمع أصول الفقه وتدل على الفروع فهي:

كتاب الرسالة القديمة (كتبه في بغداد)

كتاب الرسالة الجديدة (كتبه في مصر)

كتاب اختلاف الحديث

كتاب جمَّاع العلم

كتاب إبطال الاستحسان

كتاب أحكام القرآن

كتاب بيان فرض الله عز وجل

كتاب صفة الأمر والنهي

كتاب اختلاف مالك والشافعي

كتاب اختلاف العراقيين

كتاب الرد على محمد بن الحسن

كتاب علي وعبد الله

كتاب فضائل قريش

وهناك كتب مصنفة في الفروع، وقد جمعت كلها في كتاب واحد اسمه كتاب الأم. وله كتاب في الطهارة، وكتاب في الصلاة، وكتاب في الزكاة، وكتاب في الحج، وكتاب في النكاح وما في معناه، وكتاب في الطلاق وما في معناه، وفي الإيلاء والظهار واللعان والنفقات، أملاها على أصحابه، ورواها عنه الربيع بن سليمان المرادي.

ولكن في آخر أيامه دخل عليه المزني في مرضه وقال له كيف أصبحت يا أستاذ؟

فبماذا رد الشافعي عليه وماذا حدث هذا ما سنعرفه الفصل القادم والذي سيكون الفصل الأخير من حياة الإمام العظيم الشافعي

الفصل الاخير

وقال الربيع أيضاً: دخل المزنيَّ على الشافعي في مرضه الذي مات فيه فقال له: كيف أصبحت يا أستاذ؟

فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً، ولإخواني مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، وعلى الله وارداً، ولسوء عملي ملاقياً.

قال: ثم رمى بطرفه إلى السماء واستبشر وأنشد:

إليك إلـهَ الخلـق أرفـع رغبتي وإن كنتُ يا ذا المن والجود مجرماً

ولما قسـا قلبي وضـاقت مذاهبي جعلت الرجـا مني لعفوك سُلَّمـاً

تعاظمنـي ذنبـي فلمـا قرنتــه بعفوك ربي كان عـفوك أعظمــا

فما زلتَ ذا عفوٍ عن الذنب لم تزلْ تـجـود وتعـفو منةً وتكرُّمــاً

فلولاك لـم يصمِـد لإبلـيسَ عابدٌ فكيف وقد أغوى صفيَّك آدمــاً

فياليت شعـري هل أصير لجنَّةٍ أهنـــا وأمـا للسعير فأندمــا

فلله دَرُّ العـــارفِ الـنـدبِ إنه تفيض لفرط الوجد أجفانُه دمــاً

يقيـم إذا مـا الليلُ مدَّ ظلامَــه على نفسه من شدة الخوف مأتماً

فصيحاً إذا ما كـان في ذكـر ربه وفيما سِواه في الورى كان أعجمـاً

ويذكر أيامـاً مضـت من شبابـه وما كان فيها بالجهـالة أجرمــا

فصار قرينَ الهم طولَ نهــاره أخا السُّهْد والنجوى إذا الليلُ أظلمـا

يقول: حبيبي أنـت سؤلي وبغيتي كفى بك للراجـيـن سؤلاً ومغنمـاً

ألستَ الذي غذيتني وهـديتني ولا زلت منَّـانـاً عليّ ومُنعمـاً

عسى من لـه الإحسانُ يغفر زلتي ويستر أوزاري ومـا قد تقدمـا

تعاظمني ذنبـي فأقبلت خاشعـاً ولولا الرضـا ما كنتَ يارب منعماً

فإن تعفُ عني تعفُ عـن متمرد ظلوم غشـوم لا يـزايل مأتمـاً

فإن تنتـقم مني فلست بآيـسٍ ولو أدخلوا نفسي بجـرمٍ جهنمـاً

فجرمي عظيمٌ من قديم وحـادث وعفوُك يأتي العبدَ أعلى وأجسمـا

حوالَيَّ فضلُ الله من كل جانـب ونورٌ من الرحمن يفترش السمـا

وفي القلب إشراقُ المحب بوصله إذا قارب البـشرى وجاز إلى الحمى

حوالَيَّ إينـاسٌ من الله وحـده يطالعني في ظلـمـة القبر أنجُمـاً

أصون ودادي أن يدنِّسَـه الهوى وأحفظ عـهدَ الـحب أن يتثلَّمـا

ففي يقظتي شوقٌ وفي غفوتي مُنى تلاحـق خـطوي نـشوةً وترنُّمـاً

ومن يعتصم بالله يسلمْ من الورى ومن يرجُهُ هـيهات أن يتندمـا

ومات الشافعي، في آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤ هـ، وقد بلغ من العمر أربعة وخمسين عاماً، قال محمد بن عبد الله بن عبد الحكم المصري: وُلد الشافعي سنة خمسين ومائة، ومات في آخر يوم من رجب، سنة أربع ومائتين، عاش أربعاً وخمسين سنة، وقال الربيع بن سليمان: توفي الشافعي ليلة الجمعة، بعد العشاء الآخرة بعدما صلى المغرب آخر يوم من رجب، ودفناه يوم الجمعة، فانصرفنا، فرأينا هلال شعبان، سنة أربع ومائتين.

قال الإمام النووي في بستان العارفين عن الشافعي:

قلت: ومن المشهورين بكثرة التصنيف إمامنا الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي، والإمام أبو الحسن الأشعري رضي الله تعالى عنهما، وقد عدد الإمام أبو بكر البيهقي - رحمه الله تعالى - مصنفات الشافعي.... "

ومن ثناء النبي صلى الله عليه وسلم على الإمام الشافعي

روي عن أبي هريرة عن رسول اله صلى الله عليه وسلم أنه قال: اللهم اهد قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً، اللهم كما أذقتهم عذاباً فأذقهم نوالاً، ودعا بها ثلاث مرات، قال عبد الملك بن محمد أبو نعيم: هذه الصفة لا تنطبق إلا على الشافعي رضيَ الله عنه.

وقيل: فأجمعت الأمة على أن هذا في الشافعي رضيَ الله عنه، فما خرج من قريش فقيهٌ وإمامٌ يبلغ علمُه جميعَ البلادِ والأكنافِ والأطرافِ، يمناً وحجازاً وشاماً وعراقاً والثغور وخراسان وما وراء النهر إلا الشافعي رضيَ الله عنه.

وروي عن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: إذا سئلت عن مسألة لا أعرف فيها خبراً، قلت فيها بقول الشافعي رضيَ الله عنه، لأنه إمامٌ عالمٌ من قريش، وقد رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: عالم قريش يملأ الأرض علماً.

ثناء أحمد بن حنبل على الإمام الشافعي

قال عبد الملك الميموني: كنت عند أحمد بن حنبل، وجرى ذكر الشافعي، فرأيت أحمد يرفعه، وقال: يُروى عن النبي صلى الله عليه وسلم: إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يقرر لها دينها. فكان عمر بن عبد العزيز رضيَ الله عنه على رأس المائة، وأرجو أن يكون الشافعي عل رأس المائة الأخرى.

وعن إسحاق بن راهويه أنه قال: كنا بمكة والشافعي بها، وأحمد بن حنبل بها، فقال لي أحمد بن حنبل: يا أبا يعقوب، جالس هذا الرجل (يعني: الشافعي)، قلت: ما أصنع به، وسنه قريب من سننا؟ أترك ابن عيينة والمقبري؟

فقال: ويحك! إن ذاك يفوت، وذا لا يفوت، فجالسته.

وعن أحمد بن حنبل أنه قال: كانت أقفيتُنا أصحابَ الحديث في أيدي أصحاب أبي حنيفة ما تُنزع، حتى رأينا الشافعي رضيَ الله عنه، وكان أفقه الناس في كتاب الله عز وجل، وفي سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما كان يكفيه قليل الطلب في الحديث.

وقال أحمد بن حنبل: إني لأدعو لمحمد بن إدريس في صلاتي منذ أربعين سنة، فما كان فيهم (يعني الفقهاء) أتبع لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه.

وقال عبد الله بن أحمد بن حنبل: قلت لأبي: أي رجل كان الشافعي، فإني أسمعك تكثر من الدعاء له؟

فقال لي: يا بني، كان الشافعي كالشمس للدنيا، وكالعافية للناس، فانظر هل لهذين من خلف أو منهما عِوض.

وقال أحمد بن حنبل: ما أحد أمسك في يده محبرة وقلماً إلا وللشافعي في عنقه مِنَّة.

ثناء بعض العلماء عليه

أثنى على الشافعي الكثيرُ من العلماء والفقهاء، وكان مما روي في مدحه والثناء عليه: قول أبو عبيد القاسم بن سلام: ما رأيت رجلاً أعقل من الشافعي

وفي رواية: ما رأيت رجلاً قط أعقل ولا أورع ولا أفصح من الشافعي.

وقال يونس بن عبد الأعلى: ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي، لو جمعت أمة فجعلت في عقل الشافعي، لوسعهم عقله.

وقال أبو ثور: كتب عبد الرحمن بن مهدي إلى الشافعي رضيَ الله عنه وهو شاب أن يضع له كتابا فيه معاني القرآن، ويجمع قبول الأخبار فيه، وحجة الإجماع، وبيان الناسخ المنسوخ من القرآن والسنة، فوضع له كتاب الرسالة، قال عبد الرحمن: ما أصلي صلاة إلا وأنا أدعو الله للشافعي فيها.

وعن أيوب بن سويد الرملي أنه قال لما رأى الشافعي: ما ظننت أني أعيش حتى أرى مثل هذا الرجل قط.

وعن يحيى بن سعيد القطان أنه قال: إني لأدعو الله عز وجل للشافعي في كل صلاة، أو في كل يوم.

وعن أبي عبد الله نفطويه أنه قال: مثل الشافعي في العلماء مثل البدر في نجوم السماء.

رحم الله الإمام الشافعي.

المصادر والمراجع التي تم الاستعانة بها

- سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي الطبقة العاشرة.
- سيرة الإمام الشافعي موقع ويكيبيديا.
- سيرة الإمام الشافعي دكتور طارق السويدان.
- مقالة عن سيرة الإمام الشافعي موقع صيد الفوائد.
- مقالة عن سيرة الإمام الشافعي موقع شبكة الألوكة.
- مقالة عن بعنوان رسالة الإمام الشافعي موقع اليوم السابع.

للمتابعة والتواصل مع الكاتب محمود كمال خليفة

- الفيس بوك : محمود كمال خليفة – Mahmoud kamal khalifa
- صفحة اليوتيوب: الكاتب محمود كمال